بسم الله الرحمن الرحيم

# ٥٣ ـ سورة النجم

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخارىّ[1] عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ( وَالنَّجْمِ ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد مَن خلفه ، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع فى رواية غيره ، تسمية غير أمية ـ كما بسطه ابن حجر فى ( الفتح ) ـ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ٤ ـ باب فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَاعْبُدُواْ ، حديث ٥٨٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ )

[٢] ( مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ )

« وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقضّ . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًّا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغىّ . وذكره ﷺ بعنوان ( صاحبهم ) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بمحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ( وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ )

[٤] ( إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ )

« وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحيه إليه . وجملة ( يُوحَىٰ ) صفة مؤكدة لـ ( وَحْىٌ ) رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجددىّ . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحى ، وقوّاه بما فى ( مراسيل ) أبى داود عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها، كما يعلمه القرآن. واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعنى: كون مرجع الضمير للقرآن، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (اُفْتَرَىٰهُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلىّ أنه ﷺ كثيراً مايقول بالرأى فى أمور الحرب، وأمورأخرى. فلابد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لاقوة فى المراسيل ، لما تقرر فى الأصول . وبأن الآية لاتدل على منع الاجتهاد المذكور، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً. لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد، كان الاجتهاد ومايستند إليه كله وحياً، لانطقاً عن الهوى. لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ ( متى ماظننتَ كذا فهو حكمى ) أى كل ماألقيته فى قلبك فهو مرادى، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجه تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراده . فما قيل عليه من أن الوحى الكلام الخفىّ المدرك بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادىّ إلا بعموم المجاز. مع أنه يأباه قوله[1] ( عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) غير وارد عليه ، بعدماعرفت من تقريره ـ نقله فى (العناية) عن ( الكشف ) ـ وتفصيل المسألة فى مطولات الأصول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

## [٥] (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ)

«عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ» أى علم محمداً ﷺ ملَكٌ شديد قواه، يعنى جبريل عليه السلام. كما قال[2] ( إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ) و ( ٱلْقُوَىٰ ) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسرها كالرِّشا بكسر الراء فى جمع رشوة بضمها ، والحِبا فى جمع حُبوة ـ نقله ابن[3] جرير .

---

(١) [ ٥٣ / النجم / ٥ ] . (٢) ( ٨١ / التكوير / ١٩و٢٠ ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

٥٥٥٥

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ )

[٧] ( وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ )

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه. والعرب تقول لكل قوىّ العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من ( أمررت الحبل ) إذا أحكمت فتله « فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ » قال الزمخشرىّ : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء ـ كما قال شراحه ـ سببية ، لأن تشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على ( عَلَّمَهُۥ ) أى علمه على غير صورته الأصية ، ثم استوى على صورته الأصلية .

وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرته من الأمور ـ حكاه القاضى ـ.

قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، لا مصطلح أهل الهيأة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى ( فَٱسْتَوَىٰ ) يعنى جبريل عليه السلام ـ قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس ( وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير[٤] ههنا قولًا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد. وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء ـ كذا قال ـ ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ماقاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله[٢] ( أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٢٧ / النمل / ٦٧ ] .

وَءَابَآؤُنَآ ) فعطف بالآباء على المكنىّ فى ( كُنَّا ) من غير إظهار ( نحن ) فكذلك قوله ( فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تر أن النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ ولا يستوى والْخِرْوعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعنى ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (اقْرَأْ) ثم فترة الوحى فترة ذهب النبىّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه اليه . انتهى .

أقول : قد وافق القاشانىّ ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

( فَٱسْتَوَىٰ ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبىّ بالأفق الأعلى ، لأنه حين كَوْن النبىّ بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية الكلبىّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر ، لم يفهم القلب كلامه ، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبىّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايمىّ وافقهما وعبارته :

( فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ ) أى صاحبكم عند استواء نفسه ، صار ( بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ) الروحانىّ . انتهى .

وكذا الفخر الرازىّ وعبارته :

المشهور أن ( هو ) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقىّ ، فسدّ المشرق لعظمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المكان .

( فإن قيل : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول[1] ( وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ) إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول : فوق السطح . أى : إن الرائى فوق السطح ، لا المرئىّ . و ( المبين ) هو الفارق ، من ( أبان ) أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ الغاية ، وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحى فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ) إلى غير ذلك ، وقوله تعالى ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ) كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبيّن موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى مواضعه ، عند ذكر تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل عليه السلام أرى النبىّ ﷺ نفسه على صورته ، فسدّ المشرق . فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

(١) [ ٨١ / التكوير / ٢٣ ] .

وليس فى الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبىّ ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرقى وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازىّ .

وفى القرطبىّ حكاية أقوال أخر ، وعبارته :

( فَٱسْتَوَىٰ ) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه فى السماء ، بعد أن علّم محمدًا ﷺ ـ قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير ـ .

وقيل : ( فَٱسْتَوَىٰ ) أى قام وظهر فى صورته التى خُلِق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَٱسْتَوَىٰ) أى استوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان:

أحدهما ـ فى صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثانى ـ فى صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى ( فَٱسْتَوَىٰ ) فاعتدل . يعنى محمدًا فى قوّته ، والثانى فى رسالته ـ ذكره الماوردىّ ـ .

وعلى الأول يكون تمام الكلام ( ذُو مِرَّةٍ ) ، وعلى الثانى ( شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما ـ أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثانى ـ أنه النبىّ ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : ( فَٱسْتَوَىٰ ) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش ـ على قول الحسين ـ انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال فى الآية ، وسيأتى فى أول التنبيهات إيضاح ما اخترناه منها ، وإنما أخّرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ )

[٩] ( فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ )

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّىٰ » أى إليه .

قال ابن جرير[1] : هذا من المؤخر الذى معناه التقديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله ( دَنَا ) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلىّ فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبىّ بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل بـ ( أراد الدنو ) ـ كما فى الإيضاح ـ .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » أى كأن مسافة مابينهما مقدار قوسين . أى بقدرهما إذا مُدَّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيبه : مابين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدّر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابىْ قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحداهما بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر ، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم ينزعانهما معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه ـ كذا قال مجاهد ، وارتضاه عامة المفسرين ـ انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

قال السمين : وقوله تعالى ( أَوْ أَدْنَىٰ ) كقوله[1] : ( أَوْ يَزِيدُونَ ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى لتقارب مابينهما ، يشك الرائى فى ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه فى رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر فى ( أَوْ يَزِيدُونَ ) فإن المعنى : إذا رآهم الرائى يقول هم مائة ألف أو يزيدون .

وقيل : ( أَوْ ) بمعنى ( بَلْ ) أى بل أدنى .

و ( أَدْنَىٰ ) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ( فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ )

« فَأَوْحَىٰٓ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِۦ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبىّ ﷺ . وإنما أضمر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإبهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] ( مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ )

« مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ مارآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . يعنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق وصدق. وقرئ ( ما كذَّب ) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملَك ربانىّ ، لا خيال شيطانىّ ، كما قال[2] ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية فى أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٤٧ ] . (٢) [ ٨١ / التكوير / ٢٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ )

« أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانىّ : أى أفتخاصمونه على شىء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبىّ ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصحّ المجادلة فى المرئىّ ، لأنه لا يجوز الجدال فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ )

[١٤] ( عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ )

[١٥] ( عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ )

[١٦] ( إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ )

[١٧] ( مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ )

[١٨] ( لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ )

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرّة أخرى من النزول ، وتأكيد الخبر عن الرؤية

الثانية هـذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه . « عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ » أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . و(المنتهى) : اسم مكان ، أومصدر ميمىّ . وقد جاء فى الصحيح[1] أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبهت بالسدرة ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبهت بها ، وسميت (سدرة) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لكن ورد فى الحديث[2] أن كل نبقة فيها كقلة من قلال هجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر ـ قاله الشهاب ـ .

« عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ » أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . « إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ » قال القاشانىّ : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها . « مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ » أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . « وَمَا طَغَىٰ » أى ما تجاوز مرئيّه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . « لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ » يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالته . وفيه غاية التفخيم لمقامه ، وأنه من الآيات الكبر .

قال الناصر : ويحتمل أن تكون ( ٱلْكُبْرَىٰٓ ) صفة لآيات ، ويكون المرئىّ محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ أمورًا عظامًا لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

## تنبيهات :

الأول ـ قدمنا فى تفسيرقوله تعالى ( فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ) ماقاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى مافى بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازىّ ومن وافقهما، وبعض أقوال حكاها القرطبىّ . والأقرب فى معنى الآية ماذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك. ونحن نقول فى تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما فى سورة التكوير تمام المشابهة، فقدقال تعالى[1] ثمة: (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنوّ واقتراب لم يذكر فى (التكوير) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبىّ ﷺ فى معارج الكمالات وقتاً فوقتاً. وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه فى ( الإتقان ) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان فى (النجم) زيادة هذا التكريم والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ماينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم، جمّ المناقب، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى. ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيّه تنزل من الأفق ، ودنا إليه، وكان فى غاية القرب منه، والتمكن من رؤيته، وتلقى الوحى عنه. وذلك كله حق وصدق لامرية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره مايصدقه فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى فى مكان معين لايشتبه على رائيه، وهو سدرة المنتهى. وبالجملة، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لاخفاء به عند المتدبر ، وكله رد على المشركين المفترين، وإقسام على حقيقة الوحى والتنزيل ، وصدق مايخبر به، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه. فما بقى بعد التعنت

(١) [ ٨١ / التكوير / ١٩ـ٢٣ ] .

والجحد إلا انتظار سنة الله فى أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له فى آخر السورة.

هذا ملخص معنى الآيات ، وما عداه فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوّزه مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد ـ والله الموفق ـ .

الثانى ـ ما قدمناه من رجوع الضمائر فى قوله تعالى ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ... » الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنوّ والتدلّى فى سورة النجم هو دنوّ جبريل وتدلّيه ـ كما قالت عائشة وابن مسعود ـ والسياق يدل عليه ، فإنه قال ( عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القُوَى ، وهو ذو المرة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلّى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .

وروى البخارىّ [1] فى هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح.

وروى الترمذىّ [2] عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره فى صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة فى جياد ـ مكان بمكة ـ له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع فى حديث شريك فى البخارىّ [3] من قوله ( ودنا الجبّار رب العزة فتدلّى ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيى بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٣ ـ حدثنا ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٧ ـ باب قوله وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما فى سورة النجم ، نؤمن به . ونفوّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تكلّم كثير من الناس فى رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ) ، فهذه هى ليلة الإسراء ، والأولى كانت فى الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقىّ : وقع فى حديث شريك فى الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذى قاله البيهقىّ رحمه الله فى هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذرّ قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنّى أراه . وفى رواية : رأيت نورًا ـ أخرجه مسلم [1] ـ .

وقوله ( ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة [2] وعن ابن مسعود [3] . وكذلك هو فى صحيح مسلم [4] عن أبى هريرة ، ولا يعرف لهم

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ ( طبعتنا ) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيى حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ ( طبعتنا ) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ ( طبعتنا ) .

مخالف من الصحابة فى تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القيّم فى ( زاد المعاد ) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصحّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ) إنما هو جبريل . وصحّ عن أبى ذرّ أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنّى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما فى لفظ آخر : رأيت نورًا .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا، ولا قوله رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال: نعم رآه حقًّا ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد. وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين. فإن كان استناده إلى قوله تعالى ( مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ) ثم قال: ( وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ) والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل ، رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : رأيت ربى عز وجل، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد[1] أيضاً عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة ( أحسبه ، يعنى فى النوم ) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول ( طبعة الحلبىّ ) والحديث رقم ٣٤٨٤ ( طبعة المعارف ) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديىّ ( أو قال نحرى ) فعلمت ما فى السموات ومافى الأرض . ثم قال: يامحمد! هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال قلت: نعم ! يختصمون فى الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء فى المكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يامحمد إذا صليت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضنى إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

ثم قال ابن كثير: وقوله تعالى[1] ( لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ) كقوله[2] (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع. لأنه قال (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث ـ ذهب بعضهم إلى أن هـذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوىّ ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقاءه إلى مافوق السموات السبع ، كما ذكر فى أحاديث المعراج من سدرة المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبىّ : لما كان الإسراء مقدماً فى الوجود على المعراج، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج ومافيه . وكان مافى المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ مالا يجوز عليه ، فقال « وَٱلنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

---

(١) [ ٥٣ / النجم / ١٨ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ٢٣ ] .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحى، بأنه تعليم ملك كريم ، مرئىّ للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس ، لا لإثبات المعراج .

ثم من الغرائب أيضاً هنا ، قول بعضهم محاولًا سرّ إفراد الإسراء عن المعراج ، وذكر كلٍّ فى سورةٍ ، ما مثاله : إن الإسراء أنزل أولًا وحده ، حملًا للمشركين على تسليم ما وضح صدقه ﷺ فيه، توصلًا للتصديق بماوراءه فإنه ﷺ أرشد أن يخبر المشركين أولًا بالإسراء إلى المسجد الأقصى ، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه ، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط ، فتقوم الحجة عليهم . وكذلك وقع ، كما ذكر فى الروايات . وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم ألهم ﷺ أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام ، وأنزل الله تصديقه فى سورة النجم . انتهى . فكل هذا مما لا سند له ، نعم ! روى البيهقىّ وابن أبى حاتم وابن جرير فى حديث مطول ؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب . إنى أتيت البارحة بيت المقدس ، وعرج بى إلى السماء ورأيت كذا وكذا . إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين ، ولا حجة فى الأخبار إلا مروىّهما . وبالجملة ، فالمعوّل عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر فى القرآن مطلقاً ، وما ورد فى هذه السورة وسورة التكوير ، فلا علاقة له بالمعراج ، وإنما هى رؤية النبىّ صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم . وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية. لصريح حديث البخارىّ فى ذلك من طرقه التى عن أنس ومالك بن أبى صعصعة. قال بعضهم ولذلك لم يذكر فى حديث المعراج، بحسب رواية البخارىّ التى هى أصح الروايات بالإجماع ، أن النبىّ ﷺ سار أولا إلى بيت المقدس ، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه، ثم ظهر له عند سدرة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة ، وذلك يدل على أن ما ذكر فى القرآن مما وقع يقظة، هو غير ماذكر فى الحديث، مما وقع مناماً فى وقت آخر،

وإلا لذكرا معا فى سياق واحد ، إما فى القرآن ، وإما فى أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذى لم يحصل إلا فى بعض روايات لا يعوّل عليها ، وهى من خلط بعض الرواة الحوادثَ بعضها ببعض . انتهى ـ والله أعلم ـ .

ثم قال تعالى مفكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لها البيوت ، مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن لعبادته تعالى وحده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] ( أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ )

[٢٠] ( وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ )

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ » قال ابن كثير : هى صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فِناء معظَّم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير[1] : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا ( ٱللَّٰتَ ) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشرىّ : هى فعلة من ( لوى ) لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتوون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا ( اللاتّ ) بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلًا يلتّ للحجيج فى الجاهلية السويق ، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه .

« وَٱلْعُزَّىٰ » وهى شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى ( العزيز ) وقال الزمخشرىّ : أصلها تأنيث الأعز .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

« وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظّمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

روى البخاريّ عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير[1]: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللّات والعُزّى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

## تنبيهات :

الأول ـ قال القاضى : ( مناة ) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت ( منى ) لأنه يمنى فيها القرابين ، أى ينحر .

وقال الزمخشريّ : وكأنها سميت ( مناة ) لأن دماء المناسك كانت تمنى عندها ، أى تراق .

وقرئ ( مناءة ) مفعلة من ( النوء ) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .

فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .

وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو ( ٱلثَّالِثَةَ ) للتأكيد ، و ( ٱلْأُخْرَىٰٓ ) بيان لها، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : ( ٱلْأُخْرَىٰٓ ) مايثبت آخرًا ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجودىّ ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجودىّ ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلىّ ، بخلاف ( آخر ) و ( آخرة ) ، على وزن فاعل وفاعلة، فإن إشعارها بالتأخير الوجودىّ ، ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودىّ ، لأن ( الأفعل ) و(الفعلى) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما . وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني ـ قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق في السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكانت لقريش ولبني كنانة ( اْلعُزَّىٰ ) بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عُزَّ كفرانَكِ لا سُبْحانَكِ إني رأيتُ اللهَ قد أَهانَكِ

روى النسائيّ عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتها ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : ياعزى ! ياعزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب . وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر ، من ناحية المشلّل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : علىّ بن أبى طالب . انتهى .

الثالث ـ قال ابن جرير[1] : اختلف أهل العربية فى وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحويّى البصرة يقول : إذا سكتَ قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللاتّ ، فجعله من اللتّ الذى يلت. ولغة العرب يسكتون على مافيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شىء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحويّى الكوفة يقف على ( اللات ) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار فى كل مالم يضف ، أن يكون بالهاء[2] ( رَحْمَةُ مِّن رَّبِّى )[3] ( وَشَجَرَةً تَخْرُجُ ) . وما كان مضافاً فجائز بالهاء والتاء، فالتاء للإضافة، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثانى، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها فى العرب، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ )

[٢٢] ( تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ )

« أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ » قال الزمخشرىّ : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، مع وأدهم البنات، فقيل لهم : (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث،

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ١٨ / الكهف / ٩٨ ] . (٣) [ ٢٣ / المؤمنون / ٢٠ ] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهنّ آلهة ؟ انتهى.

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام فى (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرنى) وفى كيفية دلالتها على ذلك، واختلاف النحاة فى فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرىّ ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضىّ . أو علمية ، فتكون فى محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها فى تأويل : أهى بنات الله ؟

قال السمين: وكأنّ أصل التركيب: ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام. وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ » أى جائرة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير[1] : والعرب تقول ( ضِزْتُهُ حقَّه ) بكسر الضاد ، و ( ضُزته ) بضمها، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير ( ضئزى ) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن على ( ضَيْزَىٰٓ ) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من ( ضازه يضيزه ) إذا ضامه وجار عليه ، فمعنى (ضيزى) جائرة. وعلى هذا فتحتمل وجهين: أحدها ـ أن تكون صفة على ( فُعلى ) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء، كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء، ولم لا قيل ( فِعلى ) بالكسر؟ .

فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد فى الصفات ( فِعلى ) بكسر الفاء ، وإنما ورد بضمها ، نحو حبلى وأنثى ورُبَّى وما أشبهه، إلا أن غيره حكى فى الصفات ذلك . حكى ثعلب: مشية حيكى ، ورجل كيسى ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى ، وهذا لا ينقض على سيبويه لأنه يقول فى ( حيكى وكيسى ) كقوله فى (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسعلى فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة .

والوجه الثانى ـ أن تكون مصدراً كذكرى . قال الكسائىّ : يقال ضاز يضيز ضيزى، كذكر يذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من ( ضأزه ) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياءً ، لكنها لغة التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه يضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من الأول . و ( ضيزى ) فى قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصليًّا ، لما تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل فى ( ضئزى ) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء الساكنة وسمع منهم ( ضؤزى ) بضم الضاد مع الواو والهمزة .

وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة كسكرى وعطشى . انتهى .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ )

« إِنْ هِيَ » أى الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها « إِلَّآ أَسْمَآءٌ » أى محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلًا . أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لا نصيب لها أصلًا ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَآ » أى جعلتموها أسماء مع خلوّها عن المسميات « أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبوع « مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ » أى برهان يتعلق به « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ » أى إلا توهم أن ما هم عليه حق « وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ » أى تشتهيه أنفسهم .

قال ابن جرير [1] : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحى جاءهم من الله ، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحى ؛ أن عبادتها لا تنبغى وأنه لا تصلح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل ( يَتَّبِعُونَ ) أو اعتراض . وأيًّا ما كان ، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

---

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و٦٢ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : استدل بقوله ( إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ . . . ) الخ على أن اللغات توقيفية. ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم .

واستدل بقوله تعالى ( إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ . . . ) الخ على إبطال التقليد فى العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .

أخرج ابن أبى حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأى على الدين ، فإنما كان الرأى من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ( أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ )

« أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ » أى ليس له ما يشتهيه من الأمور التى منها طمعه الفارغ فى شفاعة الأنداد ، وتعنته فى دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمن يَزَعُهُ . فإن ذلك من المحالات فى نظر العقل السليم ، كقوله[1] ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ )

« فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ » أى فمصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ماتسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال[2] (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(١) [ ٤ / النساء / ١٢٣ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٧١ ]

وَٱلْأَرْضُ . . . ) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبل السعادة التى لا تخفى على بصير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ )

« وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان ، بإقناطهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأنّى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصغار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ )

« إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ » أى تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة فى معنى استغراق المفرد ، أى ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهى تسمية الأنثى ، على وزان ( كسانا الأمير حلة ) أى كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها فى الشناعة والفظاعة ، واستتباع العقوبة فى الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا )

[٢٩] ( فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا )

« وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشىء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدًّا به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم التنعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من ( الإعراض ) هجرهم هجراً جميلًا ، وترك إيذائهم . وقولُ الزمخشرىّ : أى أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله ... الخ ـ لايصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين ، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله[1] تعالى ( وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التنزيل ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ( ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ )

« ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم ، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [ ٢٥ / الفرقان / ٥٢ ] .

و ( مبلغ ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء ـ كما حققه الشهاب ـ والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ » أى : ولابد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقديم العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] ( وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى )

« وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » تنبيه على سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يعجزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى » أى بالمثوبة الحسنى ، وهى الجنة .

ثم بيّن صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ )

« ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ » يعنى ما كبر الوعيد عليه من المناهى « وَٱلْفَوَٰحِشَ » يعنى ما فحش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا ٱللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثّله أبو هريرة بالقبلة والغمزة والنظرة ـ فيما رواه ابن جرير[1] ـ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبى الثانية ) .

وأصل معناه : ماقل قدره. ومنه : لمة الشَّعر، لأنها دون الوفرة. وقيل: معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ماذكر. أى إلا اللمم بما دون الكبائر والفواحش، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلًا، و(إلا) صفة بمعنى غير ـ وتفصيله فى ( العناية ) ـ .

وحكى ابن جرير[1] عن ابن عباس وغيره؛ أن معنى ( اللمم ) ماقدسلف لهم مما ألموا به من الفواحش والكبائر فى الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .

وعن ابن عباس أيضاً قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأىّ عبد لك لا ألمّا

وقال الحسن : ( اللمم ) أن يقع الوقعة ثم ينتهى . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى فى معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر ، كما قال تعالى[2] ( إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ) .

« إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير[3] : أى واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » قال[4] ابن جرير: أى أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها «وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ» أى حيثما يصوركم فى الأرحام « فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أى تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصى . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياءً «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ» أى بمن اتقاه

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٤ / النساء / ٣١ ] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح. وهذا كقوله تعالى[١] ( أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ) .

وفى الصحيحين[٢] عن أبى بكرة قال: مدح رجل رجلًا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لامحالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] ( أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ )

[٣٤] ( وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ )

[٣٥] ( أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ )

« أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى[٣] ( فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ) « وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ » أى قطع العطاء بخلًا وشحًّا « أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

---

(١) [ ٤ / النساء / ٤٩ ] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٩٥ ـ باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٥و٦٦ ( طبعتنا ) .

(٣) [ ٧٥ / القيامة / ٣١و٣٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ)

« أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ » أى بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال[1] (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)

« أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آثمة ، فإن إثمها عليها .

قال القاشانىّ : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت فى النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التى هى الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)

« وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

## تنبيهات :

الأول ـ قال[2] ابن جرير : إنما عنى بقوله (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الذى

(١) [ ٢ / البقرة / ١٢٤ ] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول: ألم يخبر قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان ، بالذى فى صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها ( وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ) أى: وأنه لا يجازَى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شرًّا . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردًّا على ما كانوا يتخرصونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجاجاً وجهلًا . ومع ذلك فمفهومها الشمولىّ جلىّ .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى ( الإكليل ) : استدل به على عدم دخول النيابة فى العبادات عن الحىّ والميت . واستدل به الشافعىّ على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى.

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعىّ رحمه الله ومن تبعه؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه. وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به ـ فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكدّه وعمله، كما جاء فى الحديث[٢]: إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقةُ الجارية ـ كالوقف

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ ( طبعتنا ) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٤ ـ كتاب البيوع ، ١ ـ باب الحث على الكسب ، عن عائشة .

ونحوه ـ هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال (١) تعالى ( إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ . . . ) الآية . والعلم الذى نشره فى الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت فى الصحيح (٢) : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام فى قوله تعالى ( لِلْإِنسَانِ ) فإن اللام لعود المنافع ، و( على ) لعود المضار . تقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه، فى المنافع والمضارّ . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل، كجموع السلامة تذكّر، إذا اجتمعت الإناث مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى ( ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ) و (الأوفى) لا يكون إلا فى مقابلة الحسنة ، وأما فى السيئة فالمثل أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ )

[٤١] ( ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ )

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » أى يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من ( أريت الشىء ) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من ( رأى ) المجرد . أى يراه ، كقوله تعالى(٣) ( وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى

(١) [ ٣٦ / يس / ١٢ ] .
(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ ( طبعتنا ) .
(٣) [ ٩ / التوبة / ١٠٥ ] .

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُو ) « ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، فـ ( الجزاء منصوب بنزع الخافض ، و (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يتعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه ـ كما فى ( الكشاف ) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ )

[٤٣] ( وَأَنَّهُو هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ )

[٤٤] ( وَأَنَّهُو هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا )

[٤٥] ( وَأَنَّهُو خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ )

[٤٦] ( مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ )

[٤٧] ( وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ )

[٤٨] ( وَأَنَّهُو هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ )

[٤٩] ( وَأَنَّهُو هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ )

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عامّ ، أى أيها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعيد ؛ أو خاصّ بالنبىّ صلوات الله عليه ، ففيه تسلية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالألوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُو هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَىٰ » أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعمّ .

قال الرازىّ : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعللان ، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعلل بأمر ، فلابد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أمات من شاء من خلقه ، وأحيى من شاء . قال ابن جرير[1] : وعنى بقوله ( أَحْيَا ) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصييره الروح فيها « وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لا تعلم ، كما قال[2] ( وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ » أى أغنى من شاء بالمال . و ( أقناه ) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ » وهو نجم مضىء خلف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ( وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ )

[٥١] ( وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ )

[٥٢] ( وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ )

---

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

(٢) [ ٥٦ / الواقعة / ٦١ ] .

[٥٣] ( وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ )

[٥٤] ( فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ )

[٥٥] ( فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ )

[٥٦] ( هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ )

« وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت ( ٱلْأُولَىٰ ) لتقدمها فى الزمان. « وَثَمُودَا۟ » أى قوم صالح « فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ » أى أشد فى كفرهم « وَأَطْغَىٰ » أى أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمّرها . « فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوىّ الذى صب عليها. « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتاب وتشكّ وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغناء والإقناء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم. « هَٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ( أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ )

[٥٨] ( لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ )

« أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام فى ( ٱلْأَزِفَةُ ) للعهد . وقيل : الآزفة علم بالغلبة للساعة هنا، لئلا يلزم وصف القريب بالقريب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة فى قربه، كما يدل عليه الافتعال فى (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ » أى ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله[1] (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ) و ( كَاشِفَةٌ ) صفة محذوف، أى نفس كاشفة، أو حال كاشفة. أوالتاء للمبالغة . أو هو مصدر بنى على التأنيث و (مِن دُونِ ٱللَّهِ) بمعنى غير الله، أو إلا الله. وقيل : الكشف بمعنى الإزلة . أى ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من ( كشف الغماء ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ )

[٦٠] ( وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ )

[٦١] ( وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ )

[٦٢] ( فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ) (سجدة) (لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعنى القرآن الذى قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر «تَعْجَبُونَ» أى : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجىء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيته الدمع المدرار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أى استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أى مما فيه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكراه كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم فى آية[2] ( وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ) «وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ» أى لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبيّ ﷺ غضاباً مبرطمين ، أى : شامخين .

(١) [ ٧ / الأعراف / ١٨٧ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ١٠٩ ] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهى لغة أهل اليمن. يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال فى ( الإكليل ) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله ( سَٰمِدُونَ ) وفسره السدّىّ بالاستكبار .

« فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لا ينبغى أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً فى عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ( وَٱلنَّجْمِ ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم فى أول السورة .

وروى الإمام أحمد[1] عن المطلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم. فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد ـ ولم يكن أسلم يومئذ المطلب ـ فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه ـ ورواه النسائىّ ـ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ الثانية ) .